القصص الديني

الحلقة الثالثة
قصص الخلفاء الراشدين

عثمان وثورة الأمصار

عبد الحميد جودة السحار

١٤

بسم الله الرحمن الرحيم

« الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ، وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا » .

(قرآن كريم)

١

انتصر المسلمونَ على الرّومِ فى إفريقيَّة انتصارًا عظيما ، فأغضب ذلك قسطنطينَ بنَ هِرَقْل ، إمبراطورَ الرّوم ، فعزم على قتال المسلمينَ بنفسه ، وجَهَّز خمسَمائةِ مركَب ، وخرج لقتال المسلمين .

وبلغ عبدَ اللّه بنَ أبى سَرْح خروجُ الرّوم لقتاله ، فأعدَّ المراكبَ وحمل المسلمين ، وركِب محمدُ بنُ أبى بكر — وكان يعتقدُ أن عليًّا أحقُّ بالخلافةِ من عثمان ، ومحمد بنُ حَذَيفة — وكان يطمعُ فى أن يستعملَه عثمانُ ولم يفعل ؛ ركِبا فى مركبٍ واحد ، وأخذا يقولان للنّاس : إن دمَ عثمانَ حلال .

استعملَ عبدَ اللّه بنَ أَبى سَرْحٍ وكان رسولُ اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم أباحَ دمه ، ونزل القرآنُ بكفرِه ؛ ولم يستعملْ أصحابَ رسولِ اللّه .

واستمرًّا فى عيبِ عثمانَ والنيلِ منه ، حتّى أخذ النّاسُ يتحدَّثونَ بما أحدثَ عُثمـان (أىْ بما فعلَه ولم يفعلْه الرَّسولُ والخليفتان قبلَه) . وراح محمدُ بنُ أبى بكر يقولُ للنّاس :

ــ إنَّ أصحابَ الرَّسولِ صلَّى اللّه عليه وسلَّم لا يَرْضَوْنَ عمّا يفعلُ عثمان . وقد تسلَّمتُ رسالةً من المدينةِ جاء فيها : « إنكم إنَّما خرجتُم لأنْ تجاهدوا فى سبيل اللّه عزَّ وجلَّ ، تطلبون دينَ محمدٍ صلَّى اللّه عليه وسلَّم ، فإنَّ دينَ محمدٍ قد أُفسِدَ وتُرِك ، فهلُمّوا فأقيموا دينَ محمدٍ صلَّى اللّه عليه وسلَّم » .

ولاحَ للمسلمينَ أسطولُ قسْطنطين ، وكان اللَّيلُ يُرخِى ستائرَه ، ولكنّها كانت ليلةً لا تعرف الهدوء ؛ كانت نواقيسُ الرُّومِ تَدُقُّ دقاتٍ متلاحقَة ، ويشقُّ أجوازَ الفضاء ابتهالاتُ المسلمينَ وتكبيرُهم ، حتّى إذَا لاحَ الصباح ، أرسل عبدُ اللّه بنُ أبى سرح

إلى الرّوم :«إن أحببتم فالسَّاحلُ حتَّى يموتَ الأعجلُ منّا ومنكم ، وإن شِئتم فالبحر » .

فقال الرّوم :

ــ الماء .

كان الرّومُ يعرفونَ أنّه لا قِبَلَ لهم بلقاء المسلمينَ على الأرض ، فرأَوْا أن يُحاربوهم في البحر ؛ فما كانَ للعربِ علمٌ بقتالِ السُّفن ، وظنَّ الرّومُ أنها فرصةٌ طيبة ، ليغسلوا فيها عارَ هزيمتهم في إفريقيَّة .

واقتربت سفن المسلمين من سفنِ الرّوم حتى التصقت بها ، فرُبط بعضُها إلى بعض ، ودارت رحَى القتال ، فقفَز الرِّجال إلى الرِّجال ، يضربونَ بالسيُّوفِ ويَطْعَنُون بالخناجر ، فسالت الدِّماءُ ، وامتزجَتْ بمياهِ البحر ، وَهَوتْ جثث القتلى بين أنياب الأمواج ، وقُتِل من الجانبين خلقٌ كثير .

وصبَر أبطالُ المسلمينَ للقتال صبرا ما صبَروه فى مَوْطِنٍ آخـر ، حتّـى جُـرح قسـطنطين ، ومشـى الضعفُ إليه ، ففرَّ بما بَقِى من أسطولِه ، وقـال قـائلٌ فى فَرَح : هذا هو الجهاد .

فقال محمدُ بنُ حُذَيفَة : تركنا خَلْفَنَا الجهادَ حقًا .

ـ وأىّ جهاد ؟

ـ عثمانَ بنَ عفّان .

٢

كان الناسُ فى المدينة يتهامسون ، ويتناقلونَ أخبارَ الأمصار ، ويقولن إنَّ الناسَ يسـتعدون للثورةِ على عثمان ، وبلغ ذلك عليًّا وطلحةَ والزُّبـيرَ وسَعدَ بـنَ أبى وقّاص ، فاجتمعوا يتحدّثون بما يخوض الناسُ فيه من حديث تذمُّرِ الأمصار ، وتأهُّبهم للانقلاب على

عثمانَ ، فجمعوا أمرَهم على مفاتحة عثمانَ في ذلك ، فذهبوا إليه ، واجتمعوا به ، وقالوا له :

ـ يا أميرَ المؤمنين ، أيأتيك عن الناس الذى يأتينا ؟

ـ لا والله .

ـ فإنا قد أتانا أنَّ الناسَ فى الأمصار مُستاءون من عُمّالِهم ، ومتذمِّرونَ من سوءِ تصرُّفهم ، وأنَّهم يستعدُّونَ للثورة عليك .

فأطرقَ عثمان ، ثم رفع رأسه ، وقال :

ـ فأنتم شركائى وشهودُ المؤمنين ، فأشيروا علىّ .

ـ نُشيرِ عليك أن تبعث رجالا ممن تثقُ بهم إلى الأمصار ، حتّى يرجعوا إليك بأخبارهم .

وأرسل عثمانُ الرِّجال إلى الشّام وإلى العِراق ، وإلى مصر ليسمعوا من النّاس شكاياتِهم ، فذهب الرِّجال ، وعادوا وقالوا :

ـ ما أنكرْنا شيئا ، ولا أنكره أعلامُ المسلمين ولا عوامُّهم . الأمرُ أمرُ المسلمين .

ولَمْ يَعُدْ عمَّارُ بنُ ياسر ، الذى أرسلَهُ عثمانُ إلى مِصرَ ليرى له خبرَ الناس ، فقدِ اتَّصل عمارُ بمحمدِ ابنِ أبى بكر ، ومحمدِ بنِ حُذَيفة ، والثوار ، واستمع إلى شكاياتِهم ، حتى اقتنعَ بها ، فانضمَّ إليهم .

٣

لم ينقطع دابرُ الإشاعات بعد عودةِ رسلِ عثمانَ من الأمصار ، بل استمرتْ تردُ إلى المدينة ، فيرفعها أهل الشورَى إلى عثمان ، فرأى عثمانُ أن يكتُبَ للنّاس ، يطلبُ مِمَّن ظُلمَ أن يأتىَ فى موسمِ الحج ، وأن يرفعَ إليه شكايتَه ، فيقتصَّ له مِمَّن ظلمه . فكتبَ إلى النّاس فى الشّام والعراق ومصر : « أما

بعد ، فإنّى آخذُ العمّالَ (الحكّام) بموافاتى فى كلِّ موسم ، فلا يُرفعُ علىَّ شىء ، ولا على أحدٍ من عمّالِى إلا أعطيتُه ، وليس لى ولعيالى حقٌّ قِبَل الرَّعية مَتْروكٌ لهم ، وقد رَفع إلىّ أهلُ المدينة ، أن أقوامًا يُشتَمون ، وآخرين يُضربون ؛ فيامن ضُربَ سرًّا ، وَشُتِمَ سِرًّا ، من ادَّعى شيئا من ذلك فليُوافِ المَوسم ، فليأخذْ بحقّه حيث كان منّى أو من عُمَّالى ، أَو تصدَّقوا ، فإن اللّه يَجْزِى المتصدِّقين » .

ولم يكتف عثمانُ بذلك ، بل بعث إلى عمالِ الأمصارِ ليوافُوه ، وليسمعَ منهم ما يُسخِط الناس ، ليعملَ على إزالة أسباب شكواهم ، فلمَّا جاء إليه العمَّال ، قال لهم :

ـ ويْحكم ؟ ما هذه الشِّكاية ؟ وما هذه الإذاعة ؟ إِنِّى واللّه لخائفٌ أن تكونوا مصدوقًا عليكم ،

وما يعصِبُ هذا إلاَّ بى (أى لا يتحمل نتيجة أعمالهم إلا عثمان) ، فقال له عُمَّاله :

ـ ألَمْ تبعثْ (أى ألَمْ تُرسل رجالاً إلى الأمصار) ؟ ألَمْ يرجعوا ولَمْ يُشافِهْهم أحدٌ بشىء ؟ لا ، واللّه ما صدق الشَّاكون .

واستمرَّ عثمانُ يحادثُ عُمَّاله ، ثم خرجَ العمَّالُ وبقىَ معاوية ، فأرسل عثمان إلى على وطلحَةَ والزُّبيرِ وسعدِ بن أبى وقّاص ، فجاءَ رسولُ الخليفةِ إلى علىٍّ ، وهو جالسٌ فى المسجدِ بعد صلاةِ العصرِ يدعوه ، فلمَّا ذهب الرّسول ، التفت علىٌّ إلى عبدِ اللّهِ بن عباس وقال : لِمَ تراه دعانى ؟

ـ دعاك ليكلِّمَكَ .

ـ انطلِقْ معى .

ودخلا على عثمان ، فوجدا طلحة والزُّبيرَ وسعدًا وأناسًا من المهاجرين ، فجلسا ، فسكتَ القوم ، ونظر بعضُهم إلى بعض ، فحمدَ اللّهَ عثمان ، ثم قال :

ـ أما بعد ، فإن ابنَ عمِّي معاويةَ هذا قد كان غائبًا عنكم ، وعن مانِلْتم منّي ، وعاتبتُكم عليه وعاتبتُموني ، وقد سألني أن يكلّمكم ، وأن يكلّمه من أَراد . فقال سعدُ بنُ أبي وقّاص في استنكار :

ـ وما عسَى أنْ يُقالَ لمعاويةَ أو يقول ، إلاّ ما قلتَ وقيلَ لك ؟

فقال عليّ : ذلكُم ، تكلَّمْ يا معاوية .

فالتفتَ معاويةُ إليهم وقال :

ـ أَنتُم أَصحابُ رسولِ اللّه صلّى اللّه عليه وسلم ، وخِيرتُه في الأمَّة ، وولاةُ أمرِ هذه الأمَّة ، لايطمعُ في ذلكَ أحدٌ غيرُكم ، اخترتُم صاحبَكم من غيرِ غلبَةٍ ولا طمَع ، وقد كبرتْ سنُّه ، وولّى عمرُه ، ولو انتظرتُم به الهرَمَ كان قريبا .

وراح معاويةُ يخوِّفُهم نتيجةَ تأليبِ النّاس على عثمان ، فالتفتَ إليه عليّ ، وقال له :

ـ وما لَكَ وذلك ؟ وما أدراك ، لا أُمَّ لك !

فقال معاويةُ فى هدوء :

ـ دعْ أمّى مكانَها ، ليستْ بَشرٍّ أمهاتِكم ، قد أَسلمتْ وبايعتِ النّبىَّ صلّى اللّه عليه وسلّم ، وأَجبْنى فيما أَقولُ لك .

فقال عثمان : صدق ابنُ أخى ، إنى أخبرُكم عنّى وعمّا وَلِيّت ، إن صاحبىَّ اللّذين كانا قبلى (أبا بكر وعمر) ظلمَا أنفسَهما ، ومن كان منهما بسبيل (أى من كان منهما قريبا) ، وإنَّ رسولَ اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم كان يُعطى قَرابتَه ، وأنا فى رَهْطٍ أهلِ عَيلةٍ وقلّةِ معاش ، فأعطيتُ أَقاربى ، ورأيتُ أنَّ ذلك لى ، فإن رأيتم ذلك خطأً فردُّوه ، فأمرى لأمرِكم تَبَع .

ـــ أعطيتَ مـروانَ بـنَ الحكم (قريـب عثمان) فَرُدَّه .

وقال الزُبيرُ :

ـ أعْطيت عبد اللّهِ بن خالد ، فَرُدَّه فوعدهم عثمانُ بردِّ مـا أعطى أقاربَـه ، وخـرج عليٌّ وطلحةُ والزُّبـيرُ وسعدٌ ومعاوية ، وأمسك عثمانُ ابنَ عَبَّاس ، فقال له :

ـ ابنَ عمّى ، ويـا بـنَ خالَتى . قـد علمتُ أنـك رأيتَ بعضَ ما رأى الناس ، فمنعك عقلُك وحلمُـك من أن تُظهرَ مـا أظهروا ، وقـد أحببْتُ أن تُعلِمَنى رَأيك فيما بينى وبينك ، فأعتذِر .

ـ واللّـه إن رأيى لـك أن تَجلَّ سِنُّك ، ويُعْرَف قدرُك وسابقتُك ، وواللّـه لوددْتُ أنّـكَ لم تفعـلْ مـا فعلت ، مما ترك الخليفتان قَبلَك .فقال عثمانُ معاتبا :

ـ فما منعك أن تشيرَ عليَّ بهذا قبـل أن أفعـلَ مـا فعَلْتُ ؟

- وما علمى أنك تفعلُ ذلك قبل أن تفعل !

٤

كاتب أهلُ مِصرَ أشياعَهم من أهلِ الكوفةِ وأهلِ البصرَة ، وتواعدوا على اللقاء فى المدينة ، فخرج أهلُ مصرَ مُدَّعين الحجّ ، وخرج محمدُ بنُ أبى بكرٍ معهم ، وبَقِى محمدُ بن حُذيفَةَ فى مِصر ، وكان إذا سُئِلَ عمن خرجَ يقول : خرج القومُ للعُمْرة .

ولكنه جعل يقول فى السرّ : خرج القومُ إلى إمامِهم ، فإنْ نزَع (أى تاب واستقام) ، وإلاَّ قتلوه .

وأوفد عبدُ اللّه بنُ أبى سَرْحٍ إلى عثمانَ رسولاً يخبره خبرَ القوم ، فأطرق عثمان ، ثم التفت إلى من عنده ، وقال : هؤلاء قومٌ من أهلِ مِصْر ، يريدونَ بزعمهم العُمرة . واللّه ما أراهمْ يُريدونها ، ولكنَّ

... رعوا إلى الفِتنة ، وطال عليهم عُمرى ، أما والله لئن فارقتُهم ليتمنّون أنَّ عمرى كانَ طال عليهم مكانَ كلِّ يوم بسنة ، مما يَرَوْنَ من الدماء المسفوكة .

وذاع فى المدينة أنَّ المصريِّينَ ما جاءوا إلا لقتل أميرِ المؤمنين ، ثم دخل كِبارُ الصَّحابةِ على عثمان ، وقالوا له :

ــ إنَّ وفدَ مِصرَ يطلب عزلَ عبدِ اللّهِ بنِ أبى سَرْح .

وأرسلت عائشةُ أمُّ المؤمنينَ إلى عثمان تقول :

ــ تقدَّمَ إليك أصحابُ محمّدٍ صلّى اللّه عليه وسلّم ، وسألوك عزْلَ هذا الرجل (عبدِ اللّه بن أبى سَرْح) فأبيْتَ ، فهذا قد قتل منهم رجُلا ، فأنصِفْهم من عامِلك .

رأى عثمانُ أن يستجيبَ لرغبة المِصرِّين ، فأرسل وقال لهم : اختاروا رجلاً عليكم مكانه .

فاختارَ النَّاسُ محمَّدَ بنَ أبى بكر ، فكتب عثمان عهدَه له وولاّه .

واستعدّ المصريُّون للعودةِ إلى مِصر ، وقد فرحوا بتوليةِ محمدِ بن أبى بكرٍ عليهم ، وحسب النّاس فى المدينةِ أن ثورةَ الأمصار قد أطفئت ، ولكنْ خاب ذلك الأمل ، فقد جاءتِ الحوادثُ على غير ما يشتهى النّاس ، فعاد المِصريونَ وأنصارُهم ليحاصِروا عثمان ، ويُريقوا دمَه الطّاهرَ الزّكىّ .